تقديم كتاب:
"رسالة في طبيعة القرابين ووظائفها"
لمارسيل موس وهنري هوبر

زينب التّوجاني
جامعة قفصة/ تونس

يعدّ تقديم القرابين طقسا من الطقوس الدينية الثابتة في كلّ المجتمعات[1]، إذ لا يخلو دين من الأديان من طقس تقديم قربان قد يكون بشريا أو حيوانيا أو نباتيا أو التضحية بجزء من الجسد كما في طقوس الختان أو بجزء من المال كما في الزّكاة أو بحيوان كما في تقديم الأضاحي وغير ذلك من الممارسات الدّالة على تجذّر هذه الطقوس في المجتمعات الإنسانية. وفي سياق فهم هذه الظّاهرة الدينية/الاجتماعيّة فهما علميّا نقدّم فيما يلي رسالة من أقدم كتب في تحليل ظاهرة القرابين وأهمّها.

فقد اشترك مارسيل موس Marcel Mauss وهنري هوبر Henri hubert، في تأليف "رسالة في طبيعة القرابين ووظائفها"[2] وقد نشرت سنة 1899. ثم أضيف إلى هذه الرسالة مقدمة في تحليل بعض الظواهر الدينية وأعيد نشرهما معا في الأعمال الكاملة لموس، المجلد الأول، سنة 1968. وتندرج أعمال هذين الباحثين ضمن المدرسة السوسيولوجية التي يشرف عليها إميل دوركهيام Emile Durkheim الذي يعتبر أن الظواهر الدينية ليست سوى ظواهر اجتماعية وأن المقدّس هو التعبير الرمزي عن الاجتماعي وأن على الباحثين أن يتعاملوا مع الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء[3].

---

[1]- يراجع في هذا:

Girard René, *La violence et le sacré*, Paris, Grasset, Le livre de poche, 1982.

[2]- اعتمدنا في هذا البحث على نسخة الكترونية هذا مرجعها:

Henri Hubert et Marcel Mauss, Une édition électronique réalisée à partir du livre : *Mélanges d'histoire des religions*. De quelques résultats de la sociologie religieuse; « Le sacrifice; L'origine des pouvoirs magiques »; La représentation du temps. «Essai sur la nature et la fonction du sacrifice. » (1899), (pages 1 à 130) Collection : Travaux de l'Année sociologique. Paris, Librairie Félix Alcan, 1929, 2e édition, 236 pages. Un article *originalement* publié dans la revue *Année sociologique*, tome II, 1899, pages 29 à 138.
http://classiques.uqac.ca/classiques/mauss_marcel/melanges_hist_religions/t2_sacrifice/sacrifice.htm

[3]- للتوسّع في هذه المفاهيم انظر مثلا:

وحاول هوبر وموس في هذه الرّسالة أن ينظرا للقرابين وبحثا لها عن أصل وسعيا إلى إخضاعها إلى نظام معقول يكون ساري المفعول في كلّ عصر، متأثّرين في ذلك بالمنهج السوسيولوجي الذي يرتكز على مسلّمة أن الظواهر الدينية تنتظم في بنى لكل منها طبيعتها ووظيفتها ولكلّ منها مظاهرها التي لا تعدو أن تكون تمثيلا لحقائق اجتماعية.

وسنبين في بضع نقاط أهمّ مفاصل هذه الرّسالة ملخّصين مضمونها عبر اختزال الأمثلة التي شرحها الكاتبان ومتتبعين المفاهيم الأساسية التي وضعاها ليؤسّسا منهجا علميا في دراسة ظاهرة القربان. وقد بدآ بنقد بعض دارسي القرابين السابقين لهما ثم عرضا تعريفهما للقربان ورسما له منظومة ذات وحدات وعرّفا هذه الوحدات وفسّرا تنوّع الأشكال القربانية بتنوع الوظائف والغايات المرجوة وخلُصا بعد كل ذلك إلى الحديث عن نوع مخصوص من القرابين اعتبراه سيد الأشكال القربانية متمثلا في تقديم الإله نفسه ضحية من أجل تأسيس مجموعة ما، وانتهيا إلى خاتمة أكدا فيها ما سلّما به بداية من كون الديني ليس سوى تمثيل رمزي للاجتماعي وقد حاولا وضع أسس علمية لتدرس القرابين وغيرها من التمثّلات الاجتماعية دراسة موضوعية. وفي ما يلي بيان ذلك:

1. نقد بعض النظريات القديمة في القربان

نقد الكاتبان نظريات من سبقهما إلى دراسة القرابين، ومن بينهم تايلورTylor[4] وسميثSmith[5] وفرايزرFrazer[6]. فالقربان بالنسبة إلى تايلور عطاء وأخذ، له سفر تكوين إذ مرّ بمراحل وأطوار، فكان في البداية هبة للرب ثم انقلب ولاء له ثم خلص بالتدريج من كل سحر وشعوذة وبلغ ذروة المجد وأصبح صفاء دالا على عمق الإيمان والتقوى.

الهبة ⇦ الولاء⇦ التّضحية بالنفس

وقد اعتبر الكاتبان أن هذا النظام لا يفسّر منظومة القرابين.

والقربان بالنسبة إلى سميث مائدة قبل كل شيء، فهو طعام طوطم، يجلس الرب حول مائدته الجليلة مع عباده فيتلذذون بأشهى الطعام، ويشعر الإنسان أنه قريب من الرب، وقد انتقداه أيضا لأنه

Émile Durkheim, *Les règles de la méthode sociologique*, PUF, Paris, 16e éd., 1967.

[4] – بالنسبة إلى تايلور انظر:

E. B. Tylor, *Civilisation primitive*, Paris, Reinwald, 1876. (Traduction par Pauline Brunet).

[5]- بالنسبة إلى سميث انظر:

W. R. Smith, *Lectures on the religions of Semites*, London, Adam @Charles Black, 1914.

[6]- بالنسبة إلى فرايزر انظر:

J.G.Frazer, *Le rameau d'or*, 4vol, Paris, Robert Laffont, coll. Bouquins, 1981-1984.

أقصى في نظرهما أشكالا من القرابين وبعض الطقوس وجمع جينيالوجيا الظواهر التي اعتقد أنها قائمة بينها فالمشكل مع سميث منهجي أيضا.

أما فرايزر فالقربان بالنسبة إليه ميثاق فهو غذاء للطبيعة تتجدد به فينهمر الغيث النافع ويتواصل الخصب الذي به تتجدد حياة الناس، فيهب الناس الحيوان أو الملكَ أو حتى الربَ فيموت ثم يبعث آخر. وأهمية هذه النظرية في نظرهما أنها أشارت إلى العلاقة بين الطقوس القربانية التي يتمّ فيها التضحية بإله وبين الثقافة الزراعية. فالقربان طقس مؤسس لكل مجتمع بشري لكن ذلك وحده لا يفسر نظام القرابين كما يودان إرساءه.

2. تعريف القربان حسب الكاتبين

فبالنسبة إليهما القربان وسيلة الناس لربط علاقة اتصال وتواصل مع العالم المقدس بفضل ما خصّوه به من ضحايا نذروها له ونحروها فتغيرت بفضل ذلك الفعل حالهم أو تغيّرت بعض أمورهم الخاصة. فالقربان يقتضي دائما أن يخص الإنسان ربه بضحية أو نذر يسخرها له فهو عبور من العام إلى العالم المقدس، وكل قربان يقتضي النذر والتسخير لكن ليس كل نذر أو تسخير بقربان، فليتمَّ القربان على المضَحي أن يصيبه التغيير أو يصيب بعض خواصه وأحواله. وهذا المتقرب يمكن أن يكون فردا أو جماعة على شرط أن يقوم الشيء المنذور بالربط بين الناس والرب أي بين الناس والمقدس. ولا يكفي أن توجد ذبيحة أو طعام ليسمّى ذلك قربانا بل يجب أن تتغير طبيعة الشيء المسَّخَرِ. أضف إلى ذلك أن كلمة قرابين بالنسبة إليهما لا تختزل في القرابين الدموية. لكن كل أنواع القرابين لها نظام واحد يفسر طبيعتها ووظائفها.

3. ترسيمة المنظومة القربانية:

للقرابين نظام واحد، يمكن أن نسميه مجازا نحوَ القرابين. ولهذا النظام وحدات دنيا وله آلية اشتغال حاول الكاتبان الكشف عنها واعتبرا أن القربان الحيواني الهندي يمكن أن يكون الأكثر تمثيلا لهذا النظام والأقربَ إليه. وقبل الشروع في تفكيك تلك الوحدات الدنيا قدّم الكاتبان فصلا في مقدمات البحث وضّحا فيه بعض التعريفات وبعض المفاهيم. فربطا بين القربان والتكريس، وفرقا بين القربان والنذر وعرّفا المتقرِّب، والأشياء التي يتقرب بها ومكان تقديم القربان وأدواته والضحية والوسيط بين المتقرب والمتقرب إليه. وكل تلك العناصر تمثل مكونات هذا النظام الأساسية.

فأما القربان فإنه يقتضي دائما أن يُخصَّ الإله بشيء. وتتغير طبيعة الأشياء المخصَّصة فيصيبها التغيير وتصبح دينية مقدسة. لذلك يختلف القربانُ عن الذبيحة أو النذر لأن طبيعة مقدّم الذبيحة لا تتغير ضرورة بعد إنهاء مراسم النذر في حين أن الذي يتقرب ويخصُّ ربا بقربان فإنه بعد إنهاء الطقس لا يبقى كما كان وإنما يكتسب نوعا من التقديس. فالمتقربُ هو ذاك الذي يعودُ عليه نفع تقديم القربانِ

وهو ذاك الذي ينتفع بتقربه سواء أكان فردا أو جماعة. والخاصيّة التي تميّز القربان عن الذبيحة هي أنّه خُصّص من أجل ربط علاقة اتصال وتواصل مع الرب. فالمتقربُ إذن يغنمُ ذلك الاتصال والتواصل المنشود عبر تنفيذ الطقس. فلذلك استنتج الباحثان أن عملية التخصيص تلك تغير طبيعة المتقرب الأخلاقية أو بعض خواصه. فالقربان هو تلك الوحدة بين هذه العناصر مجتمعة: المتقربَ والمتقرب إليه، والضحية ومكان الطقس وأدواته.

4. دراسة أنموذج: القربان الحيواني الهندي:

حاول الكاتبان الكشف عن آلية اشتغال منظومة القربان من خلال دراسة أمثلة، خاصة القربان الحيواني الهندي. فتبينا هذه المراحل:

- طقوس الإعداد:

هي طقوس تهدف إلى إنجاح عملية التواصل والاتصال مع العالم المقدس بمضاعفة الطابع الديني عبر التطهير خاصة، إذ يتطهر المتقربُ عبر شعائر غسل مقدسة ويلبس لباسا خاصا ويجتنب بعض الممنوعات ويلتزم بقص شعره وتقليم أظافره فكأنها الولادة الجديدة.

- القائم بالطقس:

يمكن أن يكون القائم بالطقس كاهنا أو قسا، فهو وسيط يقف على عتبات المقدس من جهة والعادي من جهة ثانية. وهو جاهز متطهر بطبعه يلبس لباسا خاصا بحكم وظيفته، ويقوم بالربط بين عالمين.

- القواعد التي تخصّ المكان والأدوات الخاصة بالطقس:

هو مكان مخصص للآلهة ويتمثل عادة في معبد يتوفر على مذبح، ويهيأ هذا المكان ويعدّ كما لو كان ركح مسرح، فيكون كل شيء فيه معدّا لتنجز المهمة.

- الضحية:

تهدف الطقوس التي تقام على الضحية إلى تحقيق التواصل التام مع عالم الآلهة. فتنتقى بعناية ويشترط فيها أن تكون خالية من الأمراض وذات لون معين وجنس معين. ويتم مضاعفة طابعها الديني قبل المرور إلى الفعل. عبر التوشية أو التزيين والوسم وإلباسها إلى غير ذلك.. وقد يُتحدث إلى هذه الضحية وتهدّأ فهي ليست مجرد حيوان طوطمي بل فيها روح تتحرر حين تقدم قربانا وهذه الروح قد تصبح خطرة بعد تحررها، لذلك يتم الاعتذار إليها وطلب العفو منها، وتربط الضحية في عمود فتصبح أكثر قداسة.

ويقترب المتقرّب منها ويقوم بطقوس كاللمس مثلا وهي طقوس تهدف إلى الاتصال والتواصل بينه وبين الضحية من جهة وبينه وبين الرب من جهة ثانية. عندئذ يصبح موت تلك الضحية موتا رمزيا للمتقرب نفسه. فكل قربان يقتضي وحدة بين المضحي والرب والضحية.

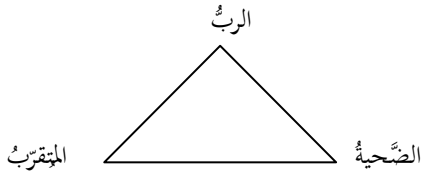

فالعملية في حد ذاتها تشبه الجريمة لذلك تُقدّم الاعتذارات وتُبكى الضحية ويُطلب من جنسها عدم الثأر لها وتتم عملية الذبح في صمت أو بتمتمة بعض الدعوات. وما إن تموت الضحية حتى تتحرر الروح. لذلك يهدف الطقس إلى التحكم بالقوة الغامضة العمياء مصدر الشك التي تتحرر عند إتمام الشعائر.

- طقوس إنهاء القربان:

للخروج من الدائرة السحرية يلزم القيام بطقوس الخروج على نفس النحو الذي به أقيمت طقوس الدخول. عبر التخلّص من الأدوات برميها في النار مثلا، وإراقة ما بقي من زبدة أو شحم وسكب ما بقي من المياه التي تم استعمالها. وفك العمود الذي يمكن أيضا أن يحرق أو يحمل إلى المنزل. ويتم حرق البقايا وتنظيف المكان بإزالة كل آثار الطقس. ويحتفظ بالأداة التي بها تم انتزاع القلب ويتم الاغتسال وتغيير الملابس في حركة عكسية لطقوس الدخول.

5. تفسير تنوّع القرابين

حاول هوبر وموس تفسير التغييرات التي تطرأ على ترسيمة القربان المثال التي بيّناها واعتبرا أن القربان الحيواني الهندي يعبر عنها أوضح تعبير، ففسرا تلك التغييرات الطارئة بتنوع الوظائف العامة والخاصّة لكل قربان. فالوحدات الدنيا التي تكون النظام العام تتبدل وتتبدل أهميتها حسب الغاية والوظيفة التي يضطلع بها الطقس، فبعض العناصر تزداد قيمتها وربما في حالات أخرى تتقلص تلك القيمة حسب الوظيفة المرجوة من تقريب القربان.

ففي بعض الحالات لا يكون للمتقرب قبل تقديم القربان أي طابع ديني مقدس، إذ يكون مثلا إنسانا عاديا، وحينئذ تصبح غاية القربان تغيير تلك الحالة وجعله مقدسا، ويتم ذلك أساسا بمضاعفة

طقوس الدخول وبإيلائها قيمة أكبر. فغاية القربان في هذه الحالة تغيير شخصية المتقرب ليجعله يحتفظ بشيء مما اكتسبه أثناء مراسم التقديم. وفي مثل هذه الحالات تتقلص طقوس الخروج إلى الحد الأدنى.

ويعتبر الكاتبان أن بعض قرابين التقديس تهدف إما إلى خلق الطابع المقدّس في المتقرّب، وإما إلى مضاعفته إذا كان ذلك الطابع موجودا فيه. وفي هذه الحالة بعد الذبح تدور الطقوس الأهم تلك التي تحقق الاتصال والتواصل الغذائي. وأحيانا يتعلق الأمر بإحداث الرابط وأحيانا بالتخفيف منه أو قطعه وفي هذه الحالة يتعلق الأمر إما بالتدنيس أو التطهير أو التكفير عن ذنب. وفيما يتعلق بهذه الأمثلة فإن التغيير ينتقل من المتقرّب إلى الضحيّة وليس من الضحية إلى المتقرّب. بأن تنتقل القداسة من المتقرب إلى الضحيّة، أو ينتقل إليه الذنب أو تنتقل إليه النجاسة. وتُختزل طقوس الدخول في هذه الحالات لأن النجاسة ضرب من التخصيص، ولأن المذنب مثلا وكذلك المجرم كائنان مقدسان. وما دامت الغاية هي التخلص من الجرم أو الذنب لزم على المتقرب أن يتخلص من بعض القوى التي تسكنه فيكسبها للضحية، وهو في هذه الحالة لا يكتسب طابعا جديدا وإنّما الضحية هي التي تكتسب بعض تلك القوى المقدسة. وفي هذه الحالة يتقلص الطابع الديني منذ بداية المراسم.

وقد لا يتعلق الأمر بإقصاء القوى الشريرة ضرورة بل بتخفيف القداسة ومثال ذلك قس يريد أن يكفّر عن عدم إيفائه بنذر أو أن يتخلّى عن مرتبة رفيعة من القداسة وهي حالات خطرة تستوجب تقديم القرابين التي تخفّف تلك الخطورة وتلطّفها.

ومن الحالات التي بينها الكاتبان ما يتعلق بقرابين البواكير الزراعية، فكل أنواع الثمار من قموح وغيرها تحتوي مقدارا هائلا من القداسة التي تجعلها محرمة ممنوعة. فتلك القرابين غايتها التخلص من تلك القداسة وفي نفس الوقت تحقيق التجدد والانبعاث.

فنحن أمام تنوع لأشكال القرابين إذ توجد بعض القرابين التي تجمع الأمرين معا أي التقديس والتدنيس، وتكون القوة التي تشحن الضحية مركبة هائلة تجمع بين النجس والطاهر، وتكون الضحية حاملة لذلك الغموض الذي يكتنف القوى الدينية، فترمز إلى الحياة والموت معا وإلى المرض والصحة فتكون نقطة كثافة الديني الذي تعبر عنه وتختزنه وتحمله فإما تجذبه نحوها وإما تدفعه عنها. وتظل شخصيّة المتقرّب أصل العملية القربانية ومآلها. فالتواصل والاتصال يغيران شخصية المتقرب أو يحدّدانها.

وبعض طقوس القربان المتعلقة بالبناء تصبح قيمة الضحية فيها مستمدة من قيمة موضوع البناء: هل هو معبد أم منزل أم قرية أم غير ذلك.؟ وهل انتهت أشغال البناء أم لم تنته والهدف من تلك الطقوس هو خلق روح في هذا المكان الجديد.

لقد حاول الكاتبان أن يبينا أن تنوع القرابين متأت من تنوع الوظائف وسمحت لهما دراسة القرابين الزراعية بإثبات أن مختلف الآليات يمكن أن تجتمع في قربان واحد. فالقرابين الزراعية لها أدوار مضاعفة تجعلها متنوعة.

6. الإله القربان

تتضاعف قيمة الضحيّة بلا شك في أحد الأشكال القربانية الأكثر تطورا في نظر الكاتبين أي في قربان الإله. ففي هذا النوع من القرابين تبلغ دلالة التضحية قمّتها. وهذا القربان بالذات يفسر حسب الباحثين نشأة أديان ومعتقدات وطقوس لا تزال سائرة بين الناس.

و"ليلعب الرب دور الضحية يجب أن تتوفر علاقة ما بين طبيعته وبين الضحايا، ومن أجل أن يقبل أن يقتل قتلا عنيفا يجب أن يجد أصلا له في القربان نفسه، وهو الأمر الذي يتحقق في كل قربان، إذ كل ضحية تحتوي على جانب مقدس، لكن تلك الضحايا المقدّسة شيء والرب القربان شيء ثان"[7].

وقربان الإله لا يمكن أن يكون بمعنى انتحار الإله، بل ليكون الرب قربانا عليه أن ينال رضا المقرّبين وأن يوافقَ وأن يكون موته مؤسّسا لجماعة ما أو فرقة ما. والأساطير التي تقص تقديم الآلهة القرابين تُنسى غالبا أصولها، وتبقى فقط الذكريات تحدث عن صراع بين آلهة الظلام والضياء وبين آلهة السماء والجحيم. وقد أصبح الإله القربان أسطورة من الأساطير المؤسسة للملاحم الكونية. فيتفاعل الطقس مع الأسطورة التي نشأت منه. وتصبح بعد ذلك أسطورة مؤثرة في ذلك الطقس. من ذلك أسطورة ديونيزوس ذلك الإنسان/الرب، ابن بشرية وابن الرب الذي قُدم قربانا ثم أعيد بعثه من جديد. فكانت قصة قربانه تحدّث بالموت والحياة والخصب والتجدد ووقف العنف وإرساء النظام ككل أسطورة من أساطير الأولين. وقد أثّرت قصته في كل دين جاء من بعد. وقد أصبح كل قربان من بعد تكرارا وإعادة لذلك القربان الأول قربان الرب.

فبالنسبة إلى الكاتبين يمكن تلخيص الأمر على هذا النحو:

طقس الإله القربان⇦الأسطورة⇦القرابين.

ففي الأصل كان الإله قربان الجماعة تتأسس وتعيشُ ثم جاءت قصص القرابين ثم بدأ الناس يعيدون ذلك القربان الأصلي بلا كلل ولا ملل حسب الوظائف والأشكال المتنوعة.

[7]– رسالة في القرابين، انظر النسخة الالكترونية المذكورة، ص 70.

الخاتمة

وخلاصة هذه الرسالة التي سعينا إلى تقديم نبذة عن محتوياتها، أن القربان غايته أساسا التواصل والاتصال بين العالم العادي والعالم المقدس عبر وساطة ضحيّة منتقاة. والأمر يتعلّق بتمثّلات رمزيّة لكنها موجودة كحقائق اجتماعية، فكل هذه المراسم التي تتنوع غاياتها ووظائفها من تكفير عن ذنوب، أو اكتساب قداسة، أو التطهر من نجاسة، أو خلق أرواح وغير ذلك من الوظائف الخاصة والعامّة إنّما تلعب دورا أساسيّا في تماسك المجموعة وتجدّدها والتعبير عنها. فالمقدس ينتمي إلى مجال الأفكار لكنّه بالنسبة إلى صاحبيْ رسالة القرابين يعبّر عن حقائق اجتماعية.

عندئذ يمكن القول إن رسالة هوبر وموس مثّلت حلقة مهمّة من حلقات دراسة القربان باعتباره تمثيلا رمزيا لحقائق اجتماعيّة، فقد فتحت هذه المقالة السبيل لمقاربة هذه الظاهرة مقاربة جديدة ستزداد تطورا مع ما سيلي هذه الرسالة من بحوث خاصّة مع رينيه جيرار الذي سيقدم حلقة مهمة أخرى من البحث في هذا الموضوع [8].

[8]- انظر مثلا:

R. Gerard, *Le bouc émissaire*, Paris, Grasset, 1982.